قراءات نقدية لكتاب كُتب بالألمانية بعنوان:

إسرائيل هي المذنبة في كل شيء: أسباب الكراهية الهائلة للدولة اليهودية

المؤلفين: جورج هافنر وإشتير شابيرا

دار النشر: إشبورن

سنه النشر ٢٠١٥، عدد الصفحات ٣٢٠.

Israel ist an allem schuld: Warum der Judenstaat so gehasst wird

Georg M. Hafner

Esther Schapira

Eichborn Verlag, 2015. 320 Pages.

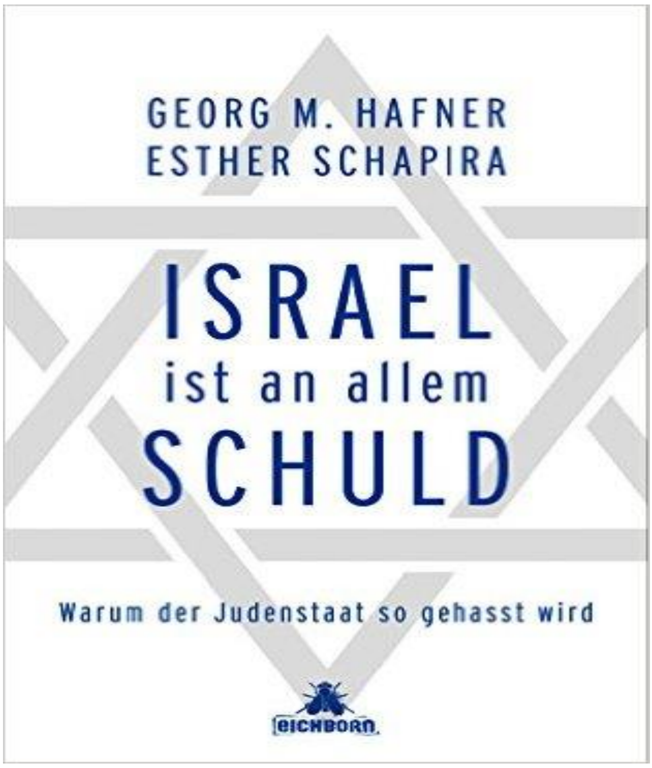

ولد جورج هافنر في هايدلبرغ في عام ١٩٤٧، وهو مذيع ومنتج أفلام، أما إشتير شابيرا المولودة عام ١٩٦١ في فرانكفورت من أب يهودي وأم غير يهودية، فهي أيضًا صحفية ومنتجة أفلام.

يقدم الكتاب الذي بين أيدينا إعلاميَّين على درجة من الشهرة، حيث يتضمن الكتاب الحديث عن دعاية متصهينة من الطراز الأول، هذه الدعاية المتصهينة ليست فقط لتبرير سياسية إسرائيل غير الأخلاقية في التعامل مع الفلسطينيين على سبيل المثال، بل سرد أكاذيب وخرافات ومعلومات كاذبة وملفقة تهدف إلى جعل القارئ الألماني يشعر بالألم والذنب الشديد لما حصل لليهود في ألمانيا من قِبل النازيين، إضافة إلى ذلك فإن القصص والحكايات الواردة فيه تحاول خلق تخوف عند القارئ من مجرد محاولة نقد إسرائيل أو الحركة الصهيونية وذلك من أجل خلط الأوراق على أساس أن نقد إسرائيل هو نقد للسامية حيث إن إسرائيل هي دولة اليهود.

الكتاب يحتوي على تمهيدين من المؤلفَين، تبدأ إشتير شابيرا تصدير الكتاب بالكلمات التالية: "عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، فإنني مطوقة، بالنسبة لي فإن مصير الدولة اليهودية مسألة عظيمة، كما هو الحال مع أي عضو من الناجين من أسرتي، أو الذين يعيشون هناك –في إسرائيل– أو أبنائهم" (ص ١١)، تبدأ الكاتبة بسرد حكايات وقصص عن حياتها الشخصية، فمثلًا عندما كان عمرها ١٥ عامًا، كانت الكوفية الفلسطينية في ذلك الحين موضة بين الشباب، لكنها تقول: "لقد كان مُحرِجًا بالنسبة لي أن أوضح لأصدقائي أن عليهم أن يخلعوا الكوفية الفلسطينية عندما يريدون زيارتي، لم يفهموا ذلك لكن الكوفيات بقيت دائمًا في الخارج" (ص ١٣)، هذه القضية وغيرها من القصص التي تسردها شابيرا تزيل الستار عن كراهية شديدة ليس فقط للفلسطيني كإنسان بل لأي رمز وجودي أو تمثيلي للفلسطيني.

أما جورج هافنر فيبين عدم وجود علاقات ماضية تربطه باليهود، فهو في فترة الدراسة الجامعية لم يعرف ولم يكن على معرفة بأي يهودي، لكن ذلك تغير بشكل جذري عندما كان في عقده الخامس، حين أراد تصوير فيلم وثائقي في إسرائيل والتقى هناك بسيدة يهودية من الناجين من المحرقة النازية، يقول: "لقد رفضت أن تتكلم معي، حتى التواصل البصري بيننا لم يكن ممكنًا، فلقد كنتُ (ألمانيًا)، لقد ولدت بعد الحرب، لكني كنت ابن أحد المجرمين، لم يكن هناك إمكانية للفرار، لقد كنت فجأة مشاركًا بذلك الذنب الذي ارتكبه الآباء" (ص ٢٠)، يؤسس المؤلفان من خلال التمهيدين بشكل واضح مَدخلًا للكتاب حيث لا يمكن فهم أو الإشارة لإسرائيل أو الحركة الصهيونية دون الشعور بالذنب الذي ارتكبه الألمان في الماضي، فهذه الخطيئة تشبه الخطيئة الأصلية في العقيدة المسيحية، أن تكون ألمانيًا، فهذا يعني أنك مذنب بحق اليهود.

يحمل الفصل الأول عنوان "**إسرائيل العدو المشترك**" (ص٣٠)، وفي هذا الفصل عدد من العناوين الفرعية التي تحتوي على معلومات مستفزة، فعلى سبيل المثال أحد العناوين الفرعية "**إسرائيل قاتلة الأطفال**" (ص ٣٠)، هذا الجزء يتعرض لقتل الأطفال ليس فقط في الشرق الأوسط بل أيضًا في أفريقيا، يقدم هذه القسم أرقامًا لأطفال قتلوا في سوريا والعراق ونيجيريا والأردن، لكن دون الحديث عن عدد الضحايا الأطفال الذين قُتلوا أو اعتقلوا من قِبل الاحتلال الإسرائيلي، ففي الحروب الثلاث الأخيرة على سبيل المثال قُتل وجرح مئات الأطفال الفلسطينيين.

يتعرض الكتاب في هذا الجزء لطفل فلسطيني واحد وهو (حسام عبده)، والذي كتب اسمه في الكتاب بشكل خاطئ (حسم أبو) (ص٣١)، حيث تدَّعي الكاتبة أن حركة حماس أرسلت هذا الطفل الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا ويعاني من إعاقة عقلية بحزام ناسف ليفجر نفسه، ثم يدَّعي الكاتبان أن والدة الطفل وُعدت بمبلغ مائة شيكل كهدية عندما يستشهد ابنها (ص٣١)، وهنا تُطرح الكثير من التساؤلات عن مصدر هذه المعلومات الملفقة، والتي تهدف إلى التحريض على الأطفال الفلسطينيين على أنهم عبارة عن مشاريع موت وقتل، وتفنيد هذه الرواية يتلخص في النقاط التالية:

أولًا: الطفل كان في السادسة عشرة من عمره وليس الرابعة عشرة كما تدعي الكاتبة.

ثانيًا: لا يوجد في تاريخ فلسطين أي محاولة لأي فصيل فلسطيني القيام بإرسال طفل لعمل كهذا، وخصوصًا أن الطفل يعاني من مشاكل عقلية، بعبارة أخرى؛ بما أن هذا الطفل يعاني من إعاقة عقلية فهناك إمكانية بأن يفجر نفسه في وسط الفلسطينيين أو حتى وسط أسرته.

ثالثًا: لا يوجد أي موضوعية في الإشارة إلى أن الذي أرسل هذا الطفل وعد أن يعطي والده مئة شيكل (أقل من عشرين يورو)، علمًا أن أهل الطفل أكدوا أن ما حدث مجرد مسرحية من الموساد الإسرائيلي.

رابعًا: الخطأ في كتابة الاسم له دلالة واضحة بأن الخبر مأخوذ من وسائل إعلام إسرائيلية، فإشتير شابيرا على معرفة باللغة العبرية، ويبدو أنها لم تكلف نفسها بالتأكد من تهجية الاسم بشكل صحيح بالألمانية، إضافة إلى ذلك؛ فإن هذا الخطأ يدلل على عدم معرفة الكاتبين بالثقافة الفلسطينية أو حتى العربية بشكل عام، حيث إنه لا يوجد اسم عائلة "أبو" دون أن يتبعها كنية لاسم العائلة.

يختتم الكاتبان هذا الجزء بعدة تساؤلات منها: لماذا لا يتم الحديث عن كوريا الشمالية كقاتلة أطفال؟ وإذا كان الشرق الأوسط يتمتع بمكانة خاصة عند الألمان فلماذا لا يتم الحديث عن حماس كقاتلة الأطفال؟ هذا الجزء يوضح كيف أنه يتم استخدام عناوين "كإسرائيل قاتلة أطفال" بهدف عمل دعاية متصهينة مفادها أنه في كل مكان هناك قتلٌ للأطفال، فلماذا النظر لما تفعله إسرائيل بأنه شيء غريب؟ كان أولى بالمؤلفين أن يشيرا إلى ما يعانيه الأطفال الفلسطينيون من قتل وتشريد وحصار وحرمان من الأمن والسلم بسبب الاحتلال الإسرائيلي.

ينتقل بعدها الكاتبان للحديث عن مصطلح "انتقاد إسرائيل" بجملة تجعل القارئ يُصعق، حيث يقول الكاتبان: "من يطالب بالحق في انتقاد إسرائيل، يريد أن يُسمح له بأن يقول وبشكل جلي بإزالة الدولة اليهودية بدون عواقب" (ص٣٦)، بعبارة أخرى فان الكاتبين يحاولان أن يصنفوا أي عبارة تستخدم في نقد إسرائيل أو أي حق يكفل مجرد انتقاد السياسية الإسرائيلية بأنه يهدف إلى إزالة دولة إسرائيل، وذلك لأجل خلق رادع هائل وتخوف كبير بين الألمان لمجرد انتقاد السياسة الإسرائيلية، في المقابل يسمح الكاتبان لنفسيهما بانتقاد عبارة "فلسطين حرة" حيث يصرحان بأنه عندما تقول حماس عبارة "فلسطين حرة" فهذا يعني أن تكون حرة من الوجود اليهودي (ص٣٨)، علما بأن ميثاق حماس على سبيل المثال لا الحصر في مادة ٣١ يفند تلك المقولة بشكل تام، ويصرح بأنه: "وفي ظل الإسلام يمكن أن يتعايش أتباع الديانات الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية في أمن وأمان، ولا يتوافر الأمن والأمان إلا في ظل الإسلام،

والتاريخ القريب والبعيد خير شاهد على ذلك"، ثم يكمل الكاتبان بأن ترديد عبارة "فلسطين حرة" هي الأمنية لإزالة دولة إسرائيل، وبالتالي هذه العبارة حسب المؤلفَين "هي أنقى صورة تمثل معاداة السامية" (ص٣٩).

الحرب على قطاع غزة ٢٠١٤

ينتقل الكتاب إلى عنوان "حرب الخمسين يومًا" (ص٥٩)، أي الحرب على قطاع غزة عام ٢٠١٤، حيث يشير جورج هافنر وإشتير شابيرا إلى الهلع والخوف في صفوف الضحايا المدنيين الذي يسقطون في أشكلون وأشدود وتل أبيب وسدروت وبئر السبع دون التعرض لذكر قطاع غزة، ويواصل الكتاب بأن إسرائيل مع تصاعد الصواريخ الفلسطينية صعَّدت من الهجمات -كرد فعل- ومع كل هجوم إسرائيلي كان هناك تحذير مسبق للمدنيين بأن يغادروا، أي أن إسرائيل كانت معنية بعدم سقوط أي مدني فلسطيني، بل ويدَّعي المؤلفان أن إسرائيل اتخذت إجراءات صارمة كي لا يسقط ضحايا مدنيين (ص٥٩)، ولكن المطلع على تاريخ الحروب التي قامت بها إسرائيل منذ تأسيسها في فلسطين يعرف بشكل جيد أن إسرائيل كانت دائمًا تستهدف المدنيين بشكل واضح كي تُشعر الخصم بالقدرة على الردع، وبالقوة التي تمتلكها وأنها قادرة على فعل كل شيء، وفي هذا الجزء لم تتم الإشارة لأماكن المخيمات والقرى الفلسطينية التي قُصفت من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي ولا عن أسماء الضحايا الفلسطينيين، ففي اليوم الأخير لهذه العدوان أورد المركز الفلسطيني للإعلام أن حصيلة العدوان ٢١٣٧ شهيدًا و١١١٠٠ جريح، غالبيتهم من المدنيين.

دور الإعلام

تحت عنوان دور الاعلام، والذي يناقش كيفية تعاطي الإعلام الألماني مع الحرب على قطاع غزة، يشن الكتاب هجومًا عنيفًا على الكاتب والسياسي الألماني المخضرم يورغين تودنهوفر بسبب مقابلة مع قناة (آ آر دي) الألمانية، حيث إن يورغين تودنهوفر وصف زيارته لقطاع غزة أثناء الحرب، كما صرَّح بأن أكثر من ٢٠٠ فلسطيني قتلوا في غزة بينما قتل شخص واحد فقط في إسرائيل (ص١٠٦)، يقول الكاتبان أن كلمة "فقط" التي استخدمها يورغين تودنهوفر في هذا السياق تتسم بالحقد والكراهية الشديدة لليهود، لكونها تبين أن الفلسطينيين هم الضحية وليس إسرائيل، مع وجود فارق شديد في الأرقام (ص١٠٦).

المقابلة التي أجراها يورغين تودنهوفر كانت مقابلة وصفية تصف ما يجري لكلا الطرفين، إلا أن الكتاب يروي أن هناك خطرًا كبيرًا من أشخاص أصحاب شهرة مثل يورغين تودنهوفر، حيث إن كلمته مسموعة بل وسريعة الانتشار في مواقع التواصل الاجتماعي، بعبارة أخرى، فإن الكتاب يحرض ليس فقط ضد يورغين تودنهوفر بل يحرض على وسائل الإعلام الألمانية التي تعطي الفرصة لأشخاص مثله لكي ينتقدوا دولة اليهود على منابرها، إضافة إلى ذلك، يبدو جليًا أن الهجوم الشديد على شخصيات مرموقة مثل يورغين تودنهوفر يهدف إلى أخذ الأنظار عن القضية المركزية هنا وهي العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة ومعاناة الفلسطينيين وتوجيهها إلى قضية أخرى وهي قضية كراهية اليهود ومعاداة السامية، وذلك من أجل محاولة تصوير إسرائيل على أنها هي الضحية وليس الفلسطينيون.

أعظم جرأة لتأسيس دولة في الوقت المعاصر

يتفاخر الكاتبان بأن التهديد المستمر لدولة إسرائيل لم يفتتها بل على العكس، فاليهود في الماضي كما هو الحال في الحاضر مقتنعون بأنه لا يوجد لهم أمن في أي دولة في العالم كما هو الحال في فلسطين، ويتوسع الكاتبان بأرقام وإحصائيات مغلوطة ليصرحوا مثلًا بأنه عشية ميلاد دولة إسرائيل كان هناك ٣٠ مليون عربي في مقابل ٦٥٠٠٠ يهودي، وهذا يجعل القارئ العادي يظن أن هناك معركة وقعت فعلًا بين ثلاثين مليون يريدون قتل ستمائة وخمسون ألف، ويختم الكتاب هذه الجزء باقتباس من المؤرخ اليهودي أرنو لوستكر الذي يقول: "عندما يضع العرب السلاح أرضًا لن يكون هناك حروب، لكن عندما تضع إسرائيل السلاح أرضًا، فلن يكون هناك إسرائيل" (ص١٤٥)، في هذا الجزء من الكتاب فإن القارئ يشعر بأن طبيعة العرب هي التعطش للحروب والدماء على عكس إسرائيل، التي أُجبرت على استخدام العنف والسلاح فقط لأجل الدفاع عن نفسها، ويبدو أن الكاتبان نسيا أو تناسيا المنظمات اليهودية مثل الهاغانا والأرغون ودورهم الإرهابي في التطهير العرقي والإرهاب المنظم في فلسطين.

النخبة المثقفة كمرشدين

في هذا الفصل من الكتاب يشن المؤلفان هجومًا على عدد كبير من المثقفين لا سيما الألمان، لكونهم يتعرضون للصراع الإسرائيلي الفلسطيني بشكل منتقد لإسرائيل والحركة الصهيونية، لكن التركيز انصب على نقد ثلاثة كُتَّاب ألمان، أولهم: الأديب والكاتب غونتر غراس الحائز على جائزة نوبل للسلام، ثانيًا: الروائي والكاتب مارتن فالزر، وثالثًا: الصحفي والمؤلف يعقوب أوغيشتاين، يعتبر الكاتبان أن هؤلاء الكتاب هم الذين فتحوا الطريق لنقد إسرائيل ومعادة السامية في ألمانيا، لذلك وبسببهم فإن أي شخص أصبح بمقدوره وببساطة نقد إسرائيل في الوقت الحالي كما يدعيان (ص١٨٩)، لكن الكاتبان لا يتعرضان لنقاط جديرة بالذكر تنتقد الكُتَّاب الثلاثة ، فمثلًا هناك نقد شديد يشنه الكتاب على مارتن فالزر، لأنه يشيطن دولة إسرائيل ويعتبرها تهديد للسلام العالمي (ص١٨٩)، بعبارة أخرى، فإنهما يكرران أسماء وردت في كتابات أخرى على أنهم معادون للسامية دون مناقشة أفكارهم والرد عليهم بشكل علمي ومنهجي.

بالإضافة إلى ذلك يعتبر الكاتبان أن هؤلاء الكتاب الثلاثة "يتعاملون مع نقد إسرائيل بثقة عالية، بل إنهم حازمون لأن يُعلِّموا إسرائيل الاخلاق، والتاريخ الألماني لم يقيدهم بأي شيء" (ص١٩٠)، أي أن جورج هافنر وإشتير شابيرا لا يريدون التعرض لإسرائيل بالتفكير خارج صندوق المحرقة النازية التي يجب أن تجعل الألمان على درجة كبيرة من الشعور بالذنب والتعاطف مع اليهود وبالتالي عدم التعرض لإسرائيل أو الحركة الصهيونية بأي شكل من أشكال النقد.

ويتابع الكاتبان أنه وخلال "حرب غزة" في عام ٢٠١٤ كان هناك مئات الألمان الذي أدلوا بآرائهم عن هذه الحرب، سواء كانوا كتاب، أو ممثلين أو مخرجي أفلام، وحتى مغنيين، ويتساءل الكِتاب بشكل ساذج لماذا يتحدث الكل عن قطاع غزة؟ لماذا لا يتحدثون عن السودان أو عن نيجيريا أو عن الحرب في سوريا أو العراق أو أكرانيا؟ ليتم الاستنتاج بأن الذين يصرحون عن إسرائيل وقطاع غزة تحركهم الكراهية ضد إسرائيل، فمثلًا يذكر الكِتاب السياسي والكاتب نوربرت بلوم ويصرح بأنه بكراهيته (أي نوربرت بلوم) لإسرائيل لا يقف وحيدًا، فهناك الكثير من الذين يؤيدوه (ص١٩٢)، بعبارة أخرى فان جورج هافنر وإشتير شابيرا منزعجين من تكاثر أعداد الناقدين لإسرائيل، لذلك فإنهم يزعمون أن هؤلاء

محركهم الرئيسي هو كراهية اليهود ودولة اليهود، ومن المضحك أن الكتاب يتحدث عن مصطلح الكراهية والحقد؛ بينما الكتاب يُعبر بشكل جَلي عن الحقد والكراهية ليس فقط للفلسطيني، حيث يظهر ذلك من أول صفحة فيه حتى آخره؛ بل إنهم على عداوة حتى مع الرمز الفلسطيني كما بيَّنا سابقًا.

إسرائيل: ابنة المجتمع الدولي

يدعي جورج هافنر وإشتير شابيرا أنه لا يوجد دولة أخرى في المجتمع الدولي شغلت الأمم المتحدة مثل إسرائيل، كما أنه لا توجد أيضًا دولة أخرى تم استنكارها من قبل الأمم المتحدة مثلها، ويزعم الكاتبان أن الأمم المتحدة لم تكن ضد إسرائيل مرة واحدة فقط وذلك في عام ١٩٤٧ عندما تم التصويت لصالح تأسيسها (ص٢٦٤)، سياسية الأمم المتحدة تجاه إسرائيل بهذا الشكل تعني حسب المؤلفين: إما أن إسرائيل هي أسوء دولة، أو أن الأمم المتحدة منحازة وغير محايدة في التعامل معها، ويجيب الكاتبان بطبيعة الحال أن الأمم المتحدة منحازة ضد إسرائيل، فقرارات الأمم المتحدة دائمًا ضدها، ثم ينتقل الكِتاب ليدافع عن سياسية الاحتلال الإسرائيلي في مناطق ١٩٦٧، حيث يزعم المؤلفان أنه في حال انسحبت إسرائيل من هذه المناطق المحتلة فإن حركة حماس وفتح لا يهدفون إلى السلام معها، بل إن السلام بالنسبة لهم وسيلة لتحرير فلسطين.

أعداد الضحايا ألعوبة تهكمية

يشرع هذا الفصل من الكتاب بذكر قصة مطولة عن طفل إسرائيلي من مستوطنة ناحل عوز عمره أربع سنوات قتل بواسطة صاروخ هاون في الحرب على قطاع غزة عام ٢٠١٤، ويزعم الكاتبان أن الصاروخ الذي أطلقه الفلسطينيون، أطلق من أحد مدارس الأمم المتحدة في قطاع غزة (ص٢٧٥)، الغريب هنا أنه لا يوجد أي دليل او إشارة تؤكد هذه الادعاء بأن مدارس الأمم المتحدة في قطاع غزة كانت تستخدم كمنصات لإطلاق الصواريخ، على العكس من ذلك فإن الأمم المتحدة أوضحت أن هذه المدارس كانت تستخدم كملاجئ للمدنيين كما وحملت الجيش الإسرائيلي المسؤولية عن تلك الهجمات التي أوقعت العشرات من الضحايا الفلسطينيين، ويضيف الكِتاب بشكل محرض جدًا بأن الأونروا في قطاع غزة لديها أكثر من مئتي مدرسة، لكن الأطفال لا يتم تدريسهم وتربيتهم على أساس أن يكونوا مسالمين، بل يربوا لشن حروب ضد إسرائيل في المستقبل (ص٢٨٠).

وقد حاولت أن أوضح من خلال التعرض لعدد من الأفكار الواردة في هذا الكتاب بأن جورج هافنر وإشتير شابيرا يمثلان رأس حربة لدعاية متصهينة مفادها أن الألمان عليهم ألَّا ينتقدوا إسرائيل أو الحركة الصهيونية، فإسرائيل كمشروع صهيوني هي عبارة عن دولة اليهود، الذين ظلمهم وقتلهم الألمان في الماضي، ولأجل محاولة إقناع القارئ يسرد المؤلفان الكثير من المعلومات المغلوطة والخرافية لشيطنة الفلسطيني وشرعنة احتلال أرضة بل وإباحة قتله، الكِتاب يحاول رسم صورة لإسرائيل على أنها دولة السلام وأنها مضطرة للتعامل ببعض العنف، فمثلًا التركيز على طفل

إسرائيل وغض الطرف عن آلاف الفلسطينيين يهدف إلى أن يُصنع من الطفل الإسرائيلي اسمًا وقصةً مشهورة بين الألمان، أما الفلسطينيون فهم مجرد أرقام.

ويستخدم الكتاب المحرقة النازية أو ما يعرف بالهولوكوست لتبرير سياسية إسرائيل ونشاطات الحركة الصهيونية، أيضًا يبدو واضحًا من خلال الاقتباسات الواردة في الكتاب والمقابلات بأن هافنر وشابيرا مطوقون بدائرة متصهينة، حيث لا يوجد أي اقتباس لوجهة نظر فلسطينية لا على المستوى الأكاديمي ولا على مستوى المواطن الفلسطيني البسيط، لذلك فمثل هذا الكتاب يعكس أرقي نوع من الدعاية الصهيونية لإظهار الصهيونية وإسرائيل بأنهم الخير المطلق، بينما على الجانب الآخر يظهر الفلسطيني باعتباره الشر المطلق.

في الختام تجدر الإشارة إلى أن موقع "السامي" وهو عبارة عن مجلة يهودية، قد أورد مقالًا سلط فيه الضوء على الخرافات والأساطير الواردة في هذا الكتاب ليقول أن: "جورج هافنر وإشتير شابيرا يقفون خلف السياسية الإسرائيلية دون أي احتجاج"، كما يوضح المقال في هذه المجلة اليهودية أن هناك احتمالًا كبيرًا بأن جورج هافنر وإشتير شابيرا كتبوا هذا الكتاب في وزارة الدعاية الإسرائيلية في القدس، حيث إن المؤلفان وخصوصًا إشتير شابيرا تريد أن تكون "كاثوليكية أكثر من بابا الفاتيكان"، أي أنهم متصهينان أكثر من الصهاينة أنفسهم.

فادي الزعتري